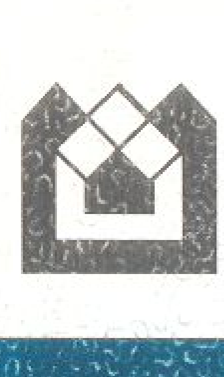


الكتاب الأول

نفس طويل

رانـدا طه

قصص

المجلس الأعلى للثقافة

اهداءات ٢٠٠٢
مجلس الاعلى للثقافة
القاهرة

نفس طويل

راندا طه

لجنة الكتاب الأول

إبراهيم فتحى (مقرراً)
إبراهيم عبد المجيد
حسين حمودة
خيرى شلبى
عبد العال الحمامصى
كمال رمزى
مجدى توفيق
محمد رجاء عيد
محمد عبده محجوب
محمد كشيك
مهدى بندق
يسرى حسان

مدير التحرير / **منتصر القفاش**

إخراج فنى / **هشام نوار**

التصميم الأساسى للغلاف محيى الدين اللباد + أحمد اللباد
لوحة الغلاف : هشام نوار

الكتاب الأول

- ٤٦ -

نفس طويل

قصص

راندا طه



٢٠٠١

الإهـداء

والداى ..... إليكما .....

إعزازاً وتقديراً لكما .

رانـدا كمـال طـه

الجزء الأول

دوامات على سطح النهر

بـراءة

وددت لو استعدت خبيئتى القديمة .. كان بها حبّات ذرة تركها الدجاج ، زهرة جمعتْ درجات البنفسجى أخذتُها من حقل جَدّى ، ريشاتٌ لهدهد ، خرز ملون استبقَتْهُ لى جَدّتى ، أوراق قص ولصق وقطع صلصال كنتُ أحضرتُها معى ... استحوذتْنى أشيائى دون غيابٍ عن العجوزين لحظة . هبَّ جدى يتعجل جدتى بالماء .. أدركتُ أن مناوشة انتظرتُها بدأتْ .. جمعتُ أشيائى قائلة لجدى : احكِ لى حكاية الصلصال والشمس . قال منفعلاً : اسمها حكاية الطين والشمس ، صلصالك من غير " فايدة " .. زمن !! حتى جدتك عرفت الكسل .

زاد ضحكى حين أتت جدتى بالماء قائلة : سمعاك .. قل لى :

- المية أهم ولا الأرض ؟

- المية حياة الأرض ..

- بطن الأرض مليانة ..

- الزرع جذوره قصيرة ..

تركتُهما إلى شجرة أمام الباب أوْدعتُ جذورها خبيئتى . عدتُ أُسِرُّ إلى جـدى .. سـألنى عن السـبب . قلتُ : لابد أنهـا تكبـر وتزيد فى الإجازة القادمة ... حين أتت القادمة كان العجوزان غائبين .

رغم اختـلاف الزمـان والمكان نجحتْ تلك الصغيرة فى أن تستدعى الذكرى .. يستطيل رداؤها ويقصر ... تداعبها ضفيرتها فتضرب بها الهواء خلفها ... لم تنتبه لى ، ولم يتركنى الجزع الضخم أستوضح ما خلفه ... قبل أن أرى الصغيرة كنتُ استكملتُ الممر ... واجهتُ الشباك الضيق لأتأكد من تبعية الخضرة للمكان .

أكدتْ لى ملفات الفتيات أن الاخصائية الاجتماعية قد تضئ الشموع لكن ممسكيها تظل ظهورهم مظلمة ... أبلغتنى المشرفة

ملاحظاتها اليومية مشيرة إلى فتاة زاد انفصالها عن زميلاتها وكثر تسللها إلى الحديقة .. حين طلبتُ إيضاحاً أخذتنى إلى نفس الشباك الضيق وأشارتْ إلى نفس الشجرة ... كانت فتاتى ...تقول الأوراق إن الجيران أسلموها إلى الدار بعد وفاة أهلها ، وإنها تتمتع بحب الجميع رغم اندماجها القليل .

حين بدأتْ لتسلل تتبعتُها إلى الحديقة .. ربما لضيقها استقرت المقاعد فى الطريق المرصوف بين البوابة والمبنى ... يؤدى إلى الحديقة الباب الخلفى للمطبخ .. تعبث هناك فى المخلفات .. تنتقى منها القشور الخضراء .. تحملها حيث يستقبلها أرنب صغير فروته سحاب أبيض .. يأكل من يدها وينطلقان .. أعود من رحلتها بوزن ريشة ..

استدعيتُها .. طلبتُ منها أن تصحبنى فى رحلتها إلى الأرنب . بين راحتَىَّ رفعتُ وجهها .. بددتْ ابتسامتى ارتباكها .. سألتُها عن الأرنب ، قالت إنها وجدته بين الحشائش ، أصرتْ أنه كان يبكى كأخيها الصغير فتجنبت إبلاغ المشرفة .. حين سألتُها عن الشجرة عادت إلى

ارتباكها .. سألتْنِى إن كان صاحبها سيذبح .. أوصيتُها به . ابتسمتْ قائلة إنها عرفتْ من مدرسة العلوم أن الأرنب يأكل الخضروات .. قلتُ وإن لم توجد ؟ همستْ سراً اعتذرتْ قبل إفضائه .. غافلتْ عاملات المطبخ فى بعض حبّات من البقول ، أخفتْها لتزرعها وقت حاجة الأرنب . أعطتنى يدها لنبدأ الرحلة .. فى الطريق لمحتُ بين جذور الشجرة نبت يستطيل .

أكلاشيه

تسكن أعلى الحائط حبيسة الإطار شهادتى . أثار ضحكى عنوانها ، منثورة حوله عدة دمغات " شهادة مؤقته " . حين أخذتُها أصرَّ أبى على تتويج الحائط بها . نظر إليها طويلاً قبل ذهابه إلى صديق ليحدِّث جاره كى يرجو آخر فى عمل لى .

علمتُ أن الراتب يضئ انفراجة فى غد سأمته ، لكن عقلى أوشك أن يهشم رأسى فوضعتُه تحت فوهة تبعث ماء مثلجاً . غادرتُ المنزل يتلاطم داخلى صمت أبى . عاد عقلى إلى التهشيم ثم تراجع أمام فراغ الممر بين مقاعد الأتوبيس . فى الإشارة ، أخذ بصرى وهو يردد " لبان " .. يرفع يده الوحيدة ، يجلب من الصندوق ويلقى على أرجل الجالسين .

مع إحدى رجّات الأتوبيس انزلقتْ قدمه ، طار عن رأسه صندوقه ، حَطَّ على الأرض منتظما كل مافيه . تركتْ الظهور مساندها وتخبطتْ الأكف حين أسرع قائماً يلتقط صندوقه .

قال لى صاحب العمل : " أنت وشطارتك ، لو نجحت الليله .. تكمل " . ارتديتُ البدلة . أمام المرآة انغلقتْ عيناى . وجدتُ مرآة أخرى داخلى . قال الواقف على رأسى " اغمض" . ظل يعمل فى وجهى ويؤكد أننى لابد أن أتعلم إعداد نفسى .

كان فى المرآة آخر ملونا ، بينما تمر أمامى جنازات شتى موتاها داخلى وأنا مشيعها الوحيد .

ألقونى فى مكان فسيح ، كل من فيه يضحكون . وقفتُ أتلفتُ حولى .. أذهب وأغدو فى ثلاثة أرباع دائره ، يسد رابعها سدود قفز بعضها من داخلى . لاأدرى لماذا انفجرتُ ضاحكا ؟! كل من حولى يضحكون .. استغرقتُ فى الضحك ... قفز أمامى الملون ساكن المرآة .. صار ضحكى بكاء كلما تعالتْ الضحكات .. رحتُ أصرخ باكياً "

لا " .. أجثو ... أضرب الأرض بقبضتَىّ .. تشرخ شهقاتهم صدرى .. أصرخ .. يصفقون . حملنى إلى الخارج من ألقونى .. حين نظرتُ فى المرآة كانت أصباغ وجهى ثابتة .

ميـلاد

عيد ميـلاد نور . جيبى خال إلا من جنيه واحد ، حفظتـه منذ أيام عديدة ، ربما يصلح لإسعاد طفل . كم أحببتُ نور . أردتنى هو . يقول مايشاء ، يفعل مايشاء وقتما يشاء ، مهما منعه الآخرون .

لا أنسى أنه أول من أعطانى لقباً وأسعدنى به (خالى) . كثيراً ما أخذتُ قبله وبعده : حاصـل علـى الشـانوية العـامة ، خريج جامعـة ، (دفعة) ، باحث عن عمل .... يبدو أنه آخِر الألقاب .

فكرة ... أشترى بالونات ، أملؤها فراغا ، أهديها إلى نور . ربما يعى الغد . شوارع تؤكد أن المنازل خالية ، أصوات السيارات ، ورائحة العادم يقشعر لها البدن ، لا اختيارلى ، أسير . كلمات لم أعهدها تلح

على أذنى : (بختك فى لعبة لابنك بجنيه . اعرف بختك بجنيه) .

صوت يختفى صاحبه خلف رؤوس بعضها أسود ، وبعضها يختلط بأسوده بياض . ينفلت وجه أشيب فى يده لعبة . فلأ سأله :

- هل صحيح ما يقوله ؟!

- طبعا . المهم ألاّتختار اللعبة . تعطيه الجنيه . تَذْكُر رقماً ما . يعطيك لعبة تحمل نفس الرقم .

الجنيه فى قبضة يدى ، قدمى تَدُوس أقداما وتُدَاس ضمن أقدام . تمتدُّ يد تسبق يدى ، تعود ... دون لعبة ، دون جنيه ، فالرقم غير موجود .

تتردد قبضتى ... فلأذكر عمر نور . يد تسبقنى ... ماذا لو أخذ رقمى ؟!!

- خذ .... سبعة .

حمدا لله . رزق نور . فلأنزع الغلاف الأسود . كل شئ الأن مغلف بالأسود . إنها سيارة نجدة ، تعمل بالزمبلك . حسناً .... إلى نور .

- كل سنة وأنت طيب ... افتحها لتخبرنى رأيك .

- وأنت طيب ... سيارة نجدة لاأعلم كيف تنجد ؟!! فى الشارع تسير ببطء فالسيارات لاتفسح طريقا ، هنا تسير فى دائرة ....

تلح على أذنى كلمات الصغير وصوت النجدة . بصرى معلق بالسيارة . أدقق . أغلق عينى حتى التصاق مقدمة الحاجبين . أفتحهما . أدقق . أكرر . فى كل مرة أرانى داخلها .



خَـيَّـــال

رفضتْ أن تكون رهينة راتبى رغم رحيل والدين كنتُ وحيدهما .. صارتْ لى غرف فى كل الفصول باردة .. أصحو تتململ أذنى مع منبه يهـزه الرنين . يؤنسنى . احتكاك أقدامى يمسح فى الأرض نعاساً .. تَدَافُعْ الماء فـوق بالوعـة صـغـيـرة تقـاوم .. صـرير الدولاب ... تلاطم الأدراج ... خطواتى المتلاحقة أستكملها بعد باب أغلقه .

أبحث بين الوجـوه دون جـدوى ، لكن اسـمى يتـردد فى أذنى .. قفـزتُ بجانبه ملقيا التحيةَ .. ضحية من داسته قدمى لم يمنع ابتسامتى ، شَقَّتْ طريقها داخلى منذ نادانى زميلى . قال لى : أهلاً بك على سلم الأتوبيس ، أكـيد أنت تحب التـعـب ، شـغلك جـانب بيتـك والمشـى

صحـــة ... سمعته .. حسدنى على موقـع سكنى وبراحـه ، نصحنى أوفـر المـواصـلات ... سمعته ... تحدث عن المعيشـة وتنازلات الحيـاة الأسريـة و ....

مسؤول الأمن يلوم وجود عجلة عم تموين ، يؤكد أن مكانها خلف المبنى أفضل ... يتحدث عن الشكل العام بينما يحل عم تموين صندوقاً عن عجلته ... يدلله فوق كتفه مؤكداً أنه لامحالة ناقل العجلة ...

(مشهد صباحى لا أمل رؤياه) . قالها زميلى ووجهه مزدان بابتسامة ما ... أكد لى فجأة أنه يمقت ركوب العجل ، وأنه ما التفت إلاَّ لعم تموين ، وقبله لآخر كان يطير بعجلته أمام قهوة يرتادها ، حاملاً مسطحاً من جريد النخيل فوقه الخبز منتظم . تذكرتُ أثناء شرود زميلى أنى ماحاولتُ يوماً أركب عجلة ... انتبهتُ لزميلى يتعجلنى إلى عم تموين فاليوم طويل .

هاجمتنى برودة لم أعهدها هنا ... اكتشفتُ أن التسلل اليوم كان جماعياً . تتبعتْ أذنى همهمات الحجرات المجاورة ، تلكؤ الآلة الكاتبة ،

ضحكات متفاوته .. قمتُ ألتمس الدفء قرب نافذة صالحتها الشمس .. حملقتُ حين رأيتُ زميل الصباح يحوم حول العجلة .. يمسك بمقدمتها .. يوجهها شرقا وغربا .. يديرها ... يحاول الركوب ... صرخ سؤال لم يطعه لسانى : أتستطيع ؟

تشَبُّث

اختطفتُ حقيبتى ، وانطلقتُ مع الآخرين .. أنهت الثرثرة شهقة من أمرتنا بالنظر أرضاً صوب سبابتها .. على قطة مشطورة تتالت .. ثأثآت .. كم مرقتْ يتدلى من فمها الرزق .. حتى الآن لازال الفأر بأسنانها مستقر ذيله فى بقعة امتد أحمرها يرسم نقش العجلة ... قُطِّب وجهى ، غَمُضَتْ عينى لقشعريرة رغم رحيل الشتاء ملكتْ أوصالى .. خلّفتُها معها حاسد وساخر وعدة أحواض هجرتها الخضرة ...

كنتُ أحتضن حقيبتى وأبقى يدها فى قبضتى . ضحكتْ زميلتى قلدتنى قائلة : أُمِّنْت على الشهر ، وراحتْ تقص حرج صاحبة المصنع حين أطلقتْ إحدى العاملات أغرودة وقالت : ضمنتُ اثنين . ثم التفتت

إلينا خفية : صاحبة المصنع تتزوج وتعود بقطع شيكولاته ... بينهم أنا لكنها قالت وسمعتُ .. انتبهتُ لاختلاف نبرتها قائلة : أكلتُ نصيبى مضطرة . عادتْ تضحك من صاحبة الأغرودة تتصايح لاحجام عم عطيه الملاحظ : انت عندك السكر وأنا عندى أربعة ... قطع استرسالها محطتى . انزلقتْ يدى على إحدى المقابض لكنى لم أقع .

حين تضيق الشوارع وتلتوى ترسم الأبنية على الطريق أشكالها . سرتُ أحصى انفلات الشمس ، فصغيرى فى الفترة الثانية ، ووالده فى العمل الإضافى ، وشتلة العنب ابنة العام الماضى أضاءها ورقاً .. وجبة تُسَجَّل على وجه الصغير بسمة أخرى . أقحمتُ يدى داخل حقيبتى .. أقتلعتُ المفتاح ، أمام الباب أرسلتُ الأسنان عبر ثقب الدائرة ... كتلة بنية تكومتّ أفهمتنى سبب انزلاق أصابعى . هجرتنى عيناى داخل الحقيبة . وجدتُ طريحة المفتاح ، والأخرى تقبع فى أقصى الجانب .. فتحتُ الباب متجهة إلى ثلاجة لم أشترها بعد ...

اشتبــاك

أمـام المطار ألقـيتُ بنفـسى داخل أول تاكـسى واجـهنى . أسندتُ حقيبتى إلى حافة المقعد جانبى . أمليتُ العنوان إلى السائق .. انطلق . فى رأسى جواد تمطيه الذكريات .. نَحيْتُها وأنا أتحسس جيبى . أخرج المفـتـاح . يصطك بحلية الميـداليـة . أطرب وأردد " الحـمـد لله " نقش متشابك مفرغ ما بينه ، أدخرتُه لمفتـاحى .. طويت السلم أبحث عن رقم الشقة .. عرف المفتاح طريقه . أغلقتُ بابى ... نعم بابى .

أطلق الضوء وأنا أجول شاخص العينين . يخاطبنى جوادى : هنيئا لك . أتوحـد مـعه .. مع مـثلث الجبن يقتـسمـه الإفطار والعشـاء ، يوم العطلـة ينفـرد ببيضـة " برشت " ، الخبز قـاسـم مشـترك ، نزهة تتكرر

كل ثلاثة أشهر أرسل الحوالة إلى أخى .. أبلغنى فى خطابه الأخير أمر الشقة . طالبته فى برقية بالمفتاح والعنوان .. سخف لم أستطع مقاومته .

عاندتنى يدى وأنا أرفعها إلى جبهتى .. أذكر أنى لمحتُ سريراً جانب إحدى الحوائط .. لابد أن أخى نقله لى . تَلَقِتْنى الأغطية . تحملتنى . نَسِيَتْ أنى عاتبتُ روح أبى . لم يترك لى إلاَّ سريراً وأغطية خشنةَ . الحجرة شاركنى فيها أولاد أخى . صار والدهم رب المنزل لكنى أحمد له كثيراً .

فى خطابه الأخير حكى لى عن الشقة وهو يقول : " غربة سنة ولاَّ اثنين تفرشها" ... يملأ أذنى صخب سيارات النقل . يختلف عمالهما بأيهم يبدأون ؟ الأخشاب أم الأجهزة أم ... أم ... المهم أن أمنعهم من رمى إرثى . سأحتفظ به . لن أعطى بالاً لانتقاد الآخرين أيا كان ... صخب السيارات يرتفع . يزداد . أحاول رفع جفنىَّ . ملتصقان . أستعيد ثقلى بعض الشئ . أحرك قدمى .. يدى ... تنفرج عينى على الفراغ حول . لِمَ لا ينقطع الصوت ؟

قشور صفرتها باهته تملأ الساحة ، أكوام متناثرة من عيدان قصب فقدت مظلتها الخضراء ، أنفار ، سيارات نقل . خليط عجبتُ أن تطل عليه نافذتى .

تختلف الأيدى على عيدان القصب ، تسكنها السيارات . آلية تسمرتْ لها قدمى . غضب المواتير والأنفار يحاذرون بعضهم أعلمنى انصراف السيارات تباعاً .

السيارة الأخيرة ... وحدها رأيتُ عادمها يرسم نقوشاً تتصاعد ، تتلاشى دون أن تطاول بناء القصب .. عيدان استقرت أفقية بطول صندوق العربة . تراكمتَ بارتفاع عود . ركام يحتضنه جدار من الأعواد الرأسية ، تتلاصق حول الصندوق من الجهات الأربع . رافع البناء واقفاً أمامه ينفث دخاناً يداعب عيدانه . تركتُ النافذة خشية أن أرى وجهه . لا أعلم لماذا ؟!

أأتنس بالفراغ حولى ، وأفتقد الخضرة . لابد أن أحضر أوانى فخاريهَ أملؤها زرعاً . فى الغربهَ اقتنيتُ واحدة . اغتالها زملاء السكن

فى مزاحهم . جمعتُ الطمى حول جذور النبات ، وضعتُه فى كوب جانب كومة الآنية ... مات مائلاً على أنقاض آنيته .. كنتُ أعلم لماذا ؟ ... هنا لم يمنعنى أحد من دق حوامل للآنيات بعضها للداخل وبعضها للخارج ... ماهذا ؟! ... أتمنى ألاَّ أجاور ورشة نجارة .

لم يغادر المكان كغيره .. لِمَ ؟! .. إنه رافع بناء القصب أسفل نافذتى إلى اليمين يُرقِدُ أمامه مسطح خشبى يدقه من كل جانب . بجواره مشعل غازى ينير المكان ظهراً . خلفه " خُص " صغير صلب الهيئة تتوسطه فتحة .. يبدو فارغاً .. أمام " الخص " على الجانبين حجران مثقوبان من أحجار " الرصيف " . يحلِّى كلا الثقبين مقصورة قصب زاهية الخضرة . يوازيها تقريباً نخيل ينمو . كيف لم أر هذا نهاراً ؟!... انطلق إلى أقصى الساحة يساراً ، يوبخ تارك القمامة ، يعود منتصراً ، يرفع مسطحه الخشبى ويثبته يمينه فى فتحة الخص . ويثبت فى الجانب الآخر من الداخل قطعة خشب تتحرك رأسياً وأفقياً . يربطها بدوبارة ، يوصلها عبر السقف إلى الخارج . يجربها . يغلق الباب

ويفتحه ... أغلقه وأخفى الدوبارة بين غاب الخوص . افترش القشور الباهتة متكئًا على عصا غليظة قرب المشعل . وأنا على وقفتى أبحث عن سؤال !!!

مشهد قديم

وفى يدها زهرة داكنة الأطراف ، تتمايل فوق ساق باهت ، قالت لى : " مثقف ، موظف ، ابن ناس طيبين . الحمد لله الأمور متيسرة . سيعطينا أبى شقة السطوح هدية . أتمنى فى المستقبل أن يفقد أحد السكان عقله ؛ فالهدية حجرة وصالة . وعد والده بشراء النوم ، أما هو يؤكد لى أن أنسب شيئ للصالة " قاعدة عربى " أعلم أنه الحل الوحيد ... تَنَهَّدَتْ . ألقتْ الزهرة وأستأذنتنى إلى موعدها معه .

بَراد الشاى فوق المشعل يرسل أبخرة ، تتوحد . أتتبع الحبل الأبيض يطلقه طرف البراد ... كأنى أمام زفرتها أمس . أستعيد كلماتها " ... الأمور متيسرة " لابد أن أعد نفسى لهديتها . لكن ..

فلأشترى بعضاً من أوانى الزرع أنقل فيها شتلات من صبارى الوفير .

الـزحـام ... رغم الزحـام حين أنطـوى مـع الشـوارع الجـانبيـة ، أفتقد مـا تأخذه أذنـى فى سيرى المتعثر . يرجفنى مواء قطة إنْ خلا بى الطريق .

ألمح بين الرؤوس جارتنا . لم أخطئ أبداً ذيل حصانها . طال أكثر منذ دخولها الجامعة . تضمه " تـوكـه " عـريضـة . يختلف شـكلها ولا يختلف حجمها . لكن مَنْ بصحبتها ؟ .. أذكر فى صغرى وهج خديها لمَّا قالت أمها لأمى " خلى نترة شعرها لبهجة الطرحة التل " . أتسلل خلفها . ألمح معها صندوقاً يجمع ألواناً . تضع منها على وجهها ؛ تضئ معها عيناها . تزيل زهو الألوان ويبقى إشراقها . يحتضن كفاها وجهى وهى تقول إنى مجرد عينين .

قـالتْ بعد سنوات إنى أحسن الاستماع . منذ أيام رأيتها تلقى صندوق ألوانها فى القمامة . رأت اتساع عينى . قالتْ إن كل ما فيه تحجر .

فلأقصد محل الأدوات المنزلية لأنظر أوانى الزرع . يبدو البائع مشغولاً مع فتايات تتضاحكن .

- الصينى أهم شئ . ممكن نشترى بالقطعة ؟

- الأهم أن يبدأ الجهاز مع أول مرتب .

- أنا اخترت مصفة الشاى .

- الملاحة لى والجاروف لك .

- الحساب لو سمحت .

أحايل بسمتى لترتسم .. أرقب بين المعروضات زهوراً تتلهف يدى امتلاكها .. بلاستك . جعلتنى عينى أتخيل عبقاً آخر . أنفاس تلفح أذنى ، يتغبش زجاج الفاترينه أمامى . من ؟!

- شاهدتك منذ قليل بصحبة ....

- صديقه من أيام الكلية .

- اللقاء كان ذكريات .

- حدثتنى عن أغلب الشلة .

عيناها المائلتان ، ورموشها البعض مسدلة كما لوحة لموهوب ماهر .
تسترسل « اخضرت صحراء الثنائى المغامر . رأتهما قرب احدى الأسواق يعتليا سيارة نقل ؛ يبيعا المحصول مجزأ . أعطياها بوفرة قائلان " كلها خسارة " . ضحكتْ وسألتْهما عن الشاعر . أخبراها أنه أحرق قصائده ، وشارك على « عربة كبدة » .
قالتْ لى : استقر بشارع الهرم فريق بتهوفن ؛ وأغلق توازن باب النقاش فى قضاياه متزوجاً صاحبة بوتيك . سألتُها عن البنات قالتْ : الأعمال معتادة ، والأجور كما تعلمين ، البعض تزوجن فى منزل الأسرة والحواديت محفوظة ؛ والبعض مثلى تتزوج مدة الأجازه السنويه " شهر " »

زفرتها تشق أبخرتها الفراغ .. أعلم بسمتها . أجاملها بأخرى باحثة عن تعليق . قالت :

- كما أنت تحسنين الاستماع .

- شلتكم لطيفه جداً .

تغوص أمامى لتستقر بالمدخل . أخلفها . تكمل الممر ، تضع مفتاحها بالباب . أصعد ، ألتوى مع السلم . أواجه بابها . يرسم الضوء ظلها على شراعةٍ زجاجها خشن . رغم أعواد الحديد المدبية أتبينها . تُنَحِّى " التوكة " ، تعبث أطراف أصابعها . تحاول أن تحرك خصلات تصر على أن تجتمع كعادتها .

تتلاحق أنفاسى . سأفتح رغماً عنى نافذتنا الوحيدة . ستطالعنى - دون شك - المواسير المتآكلة للمنزل المقابل . رائحة العطن تشق أنفى . أذنى يداعبها صوت عصافير ... لا عصفوران . يجلب أحدهما قشاً صغيراً بمنقاره . يعطيه للآخر ، ينظمه بين الحائط ونتوء الماسورة . أذكر أنى رأيت مثلهما ... قديماً تتشبث أصابعى بحافة النافذة . تسندنى أمى . أنظرهما أقصى اليسار قائلة (كُنت فاكره لازم للعصفور شجرة) تقول أمى : (لازم العصفور يصوصو ويرف بجناحه)

يسـرى داخلى قـول أمى مـعه نـغم العـصـفـورين .. يلطمنى الهـواء برائحة العطن .. تتسع عينى لتراهما - داخل العش - بين الحائط ونتوء الماسورة المتآكلة .

نزهة

أخذتْنى قدماى بضع خطوات خلف شقى صغير يطارد فراشة . لابد أنها تُسرّ إليه ، حين تطوف حوله ويدور حول نفسه ضاحكاً . اختبأتْ منه ، فراح يحرك الأزهار ، ينظر بينها ويضحك . عندما دَوّى صفير الحارس أسرع إلى أمه .

برأتْ الساحات الخضراء . أزهارها تتمطى . انكشفتْ فراشة صغيرة . جاءت لتُسِرّ إلىّ . تقيدتُ بفارِق الطول . جذبتنى . تركتْ قدماى الأرض . خارج حدود جاذبية القيد خَفَّت أثقال نفسى . كانت رفيقتى تتهادى بين الزهور . أتبعُها . خَطَّتْ على احدى الأزهار ، كادتْ تبتلعُها . لم أر أجنحتها وهى تقتلع القدم . أخذتنى إلى طيور كانت تشاهد ما يحدث من فوق شجرة مجاورة ، بين الفروع نسجوا لى من

أوراق الشجر أرجوحة . تتدلى حولها زهور عبقها روحانى . تزينها أجنحة يُغَرِّد أصحابها .

دَوِّى أزيز قريب . قالوا : إنها الدبابير . أنين الهواء تحت أجنحة صقرية ارتسمت آثاره على ملامحى . هَدَلَتْ حمامة فى أذنى . رطَّبتْ أخرى قيظ الخوف . أهدتنى ثالثة بالونة . أخشى على شفتى منها . راحت تكبر وتزيد . زفير من كيانى يسكنها . إنها تتحرك .. تعلقتُ بها . أخذتنى إلى السماء . أبتعدتُ فيها . اخترقتْ السحاب . استقرتْ بداخله . تحسستُه . هش متماسك طيع . أبيض من أبيض ناصع . اقتطفتُ منه . كورَتْهُ يداى . تَقَاذَفَتْهُ يمينى وشمالى على نغماتٍ تحمل ذكرى . بأصابعى النورانية اقتطفتُ وسادة أُسلَمْتُها خَدِّى .

دخيل يزكم أنفى . عتمة تتصاعد ، امتكلتْ شتى مجالات البصر . زفيرى يغلب الشهيق . تراجعتْ قدماى - عرقلها شئ ما . كان المقعد والرفاق يناقشون الحارس ليتركهم ، فيبرر : هيا لتلحقوا نشرة أخبار السادسة .

الجزء الثانى

تجديف

فــــوز

كنتُ أركب بعد أن ينهى الأتوبيس ثلث خط سيره ، لكنى أخذته إلى الطريق المضاد . فزتُ بأحد المقاعد الفردية ، رحتُ أفكر فى إجازة عارضة أنعم فيها بفوزى .

تشرق الشمس على الجانب الآخر ، تنداح حتى تجاوزنى ، آنست بها ، شعرتُ أنها تهنئنى حين مددتُ قدمىَّ ، تتشابك أصابعى بين رأسى والمسند ، مع فتح الأبواب انحصرتْ جارتى فاستعدتُ أصابعى وقدمىَّ ، تلاشتْ فتشكلتُ كالمقعد تماماً ، فقط احتفظتْ عضلات الرقبة بحريتها . تبينتُ من الوجوه فتحات أنوف تكاد تُعقف أطرافها وهى تنهم هواء العوادم ، كانت الأذرع تعتلى الأكتاف ، تشتبك الأيدى دون

جدوى . تثير الضحك ارتجاجاتهم ولكنى مشاركهم غداً . أمامى كا،
يمسك بكلتا يديه على المسند ، أظافره السوداء أثارت معدتى ، كا،
الهواء يخرق أذنى ، اكتشفت أن النافذة دون ساتر كنافذتى الوحيدة
أغلقها شتاءً بطبقة من البلاستك الشفاف ، تنبهتُ أن محطة نزولى
قربت ، حين التفتُّ استدار ، سأل سابقيه موضع قدم ، عرف أن الآخرين
ينتظرون الباب البعيد .

قبالة عينى بنطاله الرمادى الباهت استنكرتُه رغم أن بنطالى فقد
لونه . لاحظت جيبه المتضخم ، كانت العروة تلتف حول زرار أكل خيوطه ،
فرملة شديدة لعبت بتوازن الجميع ، وجدتُ حافظته بين يدىّ ، صعد
حاجباى واتسعت عيناى ، تنهدتُ وأعدتها إليه ، سار مع النازلين ،
يلعنون السائق ويلعن شيطانى فقرى .

مُتَّكَــأ

أذكر أنى حتى الأمس كنتُ أُجُرُّنِى إلى الداخل جراً ، أتحسس يمناى وأسفل صدغى ، تمر أصابعى بين ناتئ وغائر تركتْهما لى حافة السور ؛ أتكئ لأنظر إلى هناك !! هناك علي الجانب الآخر تجذبنى نفس الأضواء ، يتناثر وهجها خلف زجاج تخفى بعضاً منه ستائر . كثيراً ما تأرجحتْ عيناى بين كتابى والأضواء . أُحدِّثُ نفسى بأن الغد لى . أنهى أعوام الجامعة ، مصطحباً لقباً أهجر معه معاش أبى ، وحجرتى المعتمة و " سطوحى " وقمره الباهت . أهجر أشيائى ربما إلى أضواء وستائر لنوافذ تطلعنى !!! على ما تطلعنى ؟!!

انتهت الأعوام ، وبقت نفس الأضواء . أحصيها كل ليلة حتى يرتخى جفناى . أرجئ البقية إلى الغد وأنا ألوى عنقى - رغماً عنى -

إلى الداخل . أغلق حجرتى . تشطر الحيرة رأسى : أأشارك بعضاً من زملاء الدراسة فى أعمال النقاشة ، أم أستمر مع آخرين فى حمل مواد البناء ، أم أبحث عن عمل فى إحدى محال الأحذية ؟؟؟... لم أعتد أن يُدَقَّ بابى ليلاً . تساءلتُ فزعاً :

- من ؟!

- أنا يا ولَدِى . افتح .

دلّنى صوته عليه . جارى . يتنقل من بوابة إلى أخرى محتفظاً بحجرته هنا . يوماً سألته ...؟.. أكد أنه لم يصل بعد إلى مكان يناسبه . قال إن الحجرة مكان الرجوع . رغم فوارق عِدَّة تصادقنا . لكنى لم أره منذ شهور . وقتها ودعنى إلى بوابة جديدة .

فتحتُ بابى وأنا أسأله عن تركه العمل . قال إنه جاء من أجلى فلى رزق معه . لا أدرى كيف صدرتْ عنى " أين؟" . أخذنى إلى السور ، أشار أقصى اليمين .. هناك .. على الجانب الآخر ، ضوء يتأرجح مع ستائر يهزها الهواء . كان يشير قائلاً إنه مصطحبنى غداً . استرسل ... مع هزات الضوء أتحسس يمناى وأسفل صدغى ، أنقل

أصابعى إلى حافة السور ، يصعق أذنى باب يغلق . وجدتنى وحدى ، هرولتُ إلى حجرتى . جمعتُ كل نقودى وجلستُ أنتظر الغد .

أيقظتْنِى طرقات جارى . استكنتُ ... يأس فانصرفتُ . استعرتُ أدوات هدم فتحتُ بها نافذة لحجرتى . اشتريتُ بكل نقودى مصباحاً كبيراً ، دليتُه قبالة نافذتى . فى المساء افترش ضوؤه " السطوح " . أغلقتُ بابى واستلقيتُ متأملاً مصباحى ، متخيلاً انعكاسه يوماً ، على الزجاج . انتبهتُ للهواء يبحث عن ستائر يداعبها ، يبلغنى أن الشتاء قريب . غصتُ تحت غطائى وأنا أضحك إذ كنت حتى الأمس أجرنى إلى الداخل جراً .

عطش

الثانيـة والنصف . هل من المعقـول أن أصل إلى منزلى فى الثـالثة والنصف ؟ " يمكن " . لم أصـل بعـد إلى المحطة . أسـيـر .. لا ، نسـيـر فالدبيب لجيش يتجه إلى شتات . مسكين يابنى هل أجد مكاناً يوماً ما لتسير جانبى حين تأتى ؟!! " يمكن "

الثالثة . كان ينبغى أن أصل فى الموعد ، فهو الوقت المعتاد لتناول الغداء بالنسبة لأمى ولأم زوجتى . لاستـقبال الوليد الثـالث جاءتا (ولى العهد) إنْ لم يمت ... لم أنس لحظات جمودى وقتها ... إنسان أنا ؟!!

جاء الأتوبيس يتـهـادى مائلاً على الجانب الأيمن كعـادته . فـازتْ احدى قدمى بمكان على آخِر سلمه . تعلقت أصـابعى بالنافـذة . حَشْـو

الأتوبيس ملّته عيني .. سرقَتْها لافتات سوداء : طفل عيناه تثقبان المدى يحتضن أحجاراً يقذف بها رشاشاً آلياً ؛ هيكل عظمي يتضمن أسباب الحياة ؛ لا للصرب للإرهاب . يسأل زميلي مجاوره هل تعتقد أن هذا حل ؟!

- " يمكن "

جاورني صديق من العمل . بعث إلى الكمسري ليأخذ تذكرة . جاءت دون باقي ، قال صديقي : كالمعتاد . ردد الكمسري : أصبر " يمكن " .

قال صديقي بعد أن سألتُه عن غياب اليوم : كنت أتابع السلفة نواة هي لكن هل تساند الزير ؟!! " يمكن " . سألني عن آخر أخبار المكافآت . نقلتُ إليه ما قاله رئيس القسم عندما سألته : هل ستصرف هذا الشهر ؟

- " يمكن "

بدأ المنزل يظهر . لمحتُ أمي في النافذة ، لم ترني . كانتْ تروي الصبار بوجه مضئ . تتمتم شفتاها تمتمات أعلمها . سمعت دقات

قدمي تلاحق قلبي الطائر . لم تسعفني كلمات أدركتْها أمي ، فقالت : احمد واشكر .

كانت أم زوجتي تحمل بين يديها هالة بيضاء . أحتضنتُها . تأملتُها . يبكي وعيناه مغمضتان . لم أتمالك نفسي . قالت أم زوجتي : سم ابنك . قالت أمي : سمه اسم غريب يمكن يعيش .

أتأمل طفلي الباكي . أحايل الكلمات الهاربة . أخشى على رقته أحضاني . أتلمسه . حاصرتني دموعي ، راحتْ تقطر على وجه طفلي الباكي .. يهدأ . تمتمت شفتاي .. يمكن ابني حبيبي .

نفس طويل

يدير ظهره . يتشاغل بواحد من دوسيهات مكومة أمامه . يقتحم أنفه عطره النفّاذ ، فيطيل النفس .

- رائحته زكية . أليس كذلك ؟

- دعنى وشأنى . اللهم إنى صائم .

- أول أيام الشهر الكريم ، ولابد أن مرتبك تبخر . عُدّ إلى بيتك بطعام شهى . اِفتحه لله .

يفتح درج مكتبه . يخرج بعض أوراق . ينحنى . ينتصب . تحمل يمناه مدقاً صلباً ، ويسراه مسامير كبيرة . يدق حتى المنتصف بعضاً منها فى حافة الدرج ، ويعقفها على حافة المكتب فوق الدرج ويدق ... يدق .

تصلبت عـينا صاحب العطر على الدرج ، فـاتحاً فـمـه ، ممدود الرقـبـة ، يقترب حاجباه من منبت شعره . متجمد على صورته تلك .

- لن أمضى هذه الأوراق .

يدير ظهره . يتـرك المكتب . يطوى السلم . دقـات قـدمـه كدقـات المدق . يستلفته محل جزاره . يتأمله من الرصيف المقابل . يتردد داخله صوت صغـيـره (النهـارده زى العيـد الكبيـر بالضبط ، لازم لازم يكون عندنا لحمه) . يضرب كفا بكف ماصاً شفتيه ، وبينما يحوقل مغالباً دمعه يؤذن العصر .

لم يقاوم دمعه بين يدى لله . بعد الصلاه أستأذنهم الإمام فى كلمة .

قال : (إن المسجد يقيم مائدة للرحمن . المحتاج ينتظر أو يأخذ مايريد) .

فـرغ من ركـعـتى الشـكـر . اتجه إلى مكان الطعـام . أخذ كـيسـاً من البلاستيك مليئًا بالشوربة ، وبعض قطع اللحم .

ستره بورقة جديدة وأخذ طريقة إلى المحطة ، يمنِّى نفسـه بابتـسامة صغيرة .

جاء الأتوبيس كتلة بشر . يبطئ .

ظل هو على وقفته . اصطدم به مزاحم أوقع كيسه قبالة العجلة .

شبع

- شبعتُ تماما يا أبى ... أتكمله ؟

- لا مكان ... امتلأتُ ... ألقه فى السلة

ينعم بأبيه .. اللهم لا حسد ... أذكُرُكَ يا أبى . تجمعنا حولك فى صحن الدار . أمامك شواية يعلن فحمها عن بدء الوليمة . تخلع عن كيزان الذرة غطاءها الربانى . تنظر فى كل منها صفوفاً متراصة طولاً وعرضاً فتسبِّح . فوق الفحم ترصها . تديرها . تعطيها غطاءاً جديداً . حُمْرَة نضج تطعمنا إياها . - رحمك الله - كم حلمتُ معك بالمستقبل « تتعلم لحد الجامعَة وتبقى أحسن واحد فى الدنيا » . الآن تثقلنى خمسة عشر عاماً ، وخمسة أطفال ، وأم مريضة . صارت شوايتك عوناً موسمياً لمعاش قليل .

تشتاق معدتى لأحد الكيزان . لكن طعامى رغيف من خبز أسود ، أبطن نصفه بنصفه ، أفرك فيه طعميتين وكفى .

- خذ ... بع لى واحده من هذه .

- عشرة جنيهات !!.. لايكفى ما معى نصف الباقى .

- خذها كلها .. لايهم .

- شكراً .. يستحسن فكها .

- ليس معى أقل منها ، سأنتظر فى سيارتنا هذه ، وقد تأتيك الفكة .

- تفضل بالهنا ، يمكنك أن تحتفظ بجنيهاتك المجمدة .

قبالة يدى طائر يحلق فى السماء .. على ظهره . له أن يسخر منى ، رغم أنه فى مثل سنى تقريباً . يمضى الوقت . لم تزد نقودى إلاً قليلاً . مازال ينتظر .. ماذا به ؟!!

تعبر الشارع سيدة زاهية المظهر ... تقصده :

- ماذا بك ؟!! (بطرفى السبابة والإبهام تمسك بفضلات الذرة) من أين أتيت بها ؟!!

-(يشير من النافذة)

- (تمسك سماعة تليفون فى سيارتها . تضغط أزراراً) .

تتوحد يدى مع مقبض النافذة دون أن تديره .. يوم كأيام سابقة ، وأخرى قد تأتى ، طفلاً كنتُ أحسب السماء قريبَّة . أمد يدى . أداعب السحاب . يتعجلنى أبى ، فأرجئ المداعبة ... أيام . ما بين السادسة والثامنة أحايل الدقائق دون جدوى . جاء الأتوبيس . حُمِلْتُ بقوة الدفع لأتوحد مع ركام بشر . أحاديث متفرقة التقطتها أذنى : تلك تحكى لأخريات عن مخططها لكسب رضاء حماتها . آخر يؤكد لمجاوره : لابد من الصمت حتى نأخذ القمح . هؤلاء يتحدثون عن زميلهم مأموريات . هذا يحكى عن أسلوبه العبقرى الذى دفع أسرة خطيبته لترفع الأعباء .

أنفلتُ إلى الشارع قبالة المصلحة .

- صباح الخير يا أستاذ رمزى .

- صباح الخير يا فاروق . سمعت أخر الأخبار ؟ المكافأ التشجيعية لهذا الشهر أيضاً من نصيب عبد الوهاب .

- لا عجب فمديرنا ذو الأذن الكبيرة يقدر موهبته حق التقدير .

- لكن يا فاروق لابد أن تثور لحقك .

- الحق قدر الموهبة .

يمر دهر ، وساعتى ضنينةٌ . الثانية قيد فى عنقى .

- فاروق أنت مكلف بعمل عبد الوهاب لأنه استأذن .

وجدتنى وسط الشارع . تقودنى قدماى عبر الوجوه . مر بى شخصان . يتأخر أحدهما عن الآخر خطوتين . يتحدث المتأخر بعبارات من نوع سيادتكم وتفضلتم . لم أستطع أن أتبين تفاصيل الأمر . عيناى تقفزان من مقرهما . قيظ ينطلق من رأسى . وجدتُ لوحة ببيانات طبيب نفسى . قررتُ أن أصعد فوراً . كان البواب مشغولاً بشخص ما أفرط فى تبجيله . أوصله إلى سيارة . فتح بابها . أغلقه بعد أن عمرت يده .

فى العيادة لم يكن هناك غيرى . دفعتُ ثمن الكشف . أمرتنى الممرضة أن أدخل حجرة بعد أن اسمع الجرس . اختفت بعدها . وقفتُ أُمنِّى نفسى بأنفاس هادئة . سمعتُ الجرس . كان هناك شخص متجمد الوجه . أشار إلىَّ بالجلوس . لم أكد أجلس حتى دق التليفون . فور رفع السماعة ارتفع حاجباه . تلألأ ضوء فى عينيه . شفتاه اتسعتا . انطلق لسانه .

- أهلا أهلا أستاذى العظيم

- ....

- أنا أثق فى حكمة حضرتك

- ....

- أستاذى أكيد من تختاره سيادتكم هو الأكفأ ، لابد أن يفهم ذلك

- ....

- هذا شرف كبير حققه كرمكم

- ....

- أنا شاكر فضلكم جداً .... مع ألف سلامة

تتأرجح السماعة بين أصابعه . يعض شفته . تضيق عيناه . تغلبه نصف ابتسامة . ينتبه لوجودى . عاد إلى جموده . يسألنى

- ما شكواك ؟

تَحَجَّرَتْ عيناى . تَيَبَّسَتْ أوصالى . جَفَّ حلقى . تَلُفُّنِى عتمة .

تحذير

مختلف عالم الأنفاق ، عبق هواء التكييفات . وقع الأقدام . أحدث الثوار . أقدم الفراعنة .

كانت تجاور سلم النفق حيث خلية النحل التى فرضتها أهمية المكان . تفترش صندوق الكارتون ، وبعض الأقفاص أتخذتها منضدة ، تخلو إلاّ من دورق ماء وقديد خبز . تستند إلى جدار من أقفاص وصناديق كرتونية من اللون المعتاد ، تخلو من أية علامات .

غالباً ما كنت أراها واقفة فى جلبابها وشالها الأسودين ، تستوقف المارة ، وقد نال منها التراب تاركاً لها أطلالاً . تقبض أصابعها على كيس من البلاستيك الشفاف بداخله مصحف ، كان على رونق يزداد فى

كل مرة ، وهى تشير مؤكدة " اليمين : (وحق المصحف لا تأمنوا له ، خد بيتى وحالى ومالى ، أوعوا تأمنوا له) . لم يلتفت إليها أحد وهى تكرر وتغلظ اليمين . ولم تهملها أذن .

تسللت أيدٍ إلى أقفاصها . فما كان منها إلا أن استلت دورق الماء قذفت به من غافلها وعادت تشير .

حين يخلو الشارع من المارة ، ويصير صراخ السيارات أقل ، تشرع فى البناء على ضوء إشارة المترو . تفترش صندوقاً أكبر . تستخدم الجدار فتأخذ بعضاً منه . ترصه على جانبى الصندوق تاركة فتحة صغيرة فى المنتصف ، وتسد باقى الجهات . حينما تصل إلى ارتفاع تفضله تصنع سقفاً من الكارتون . ومن الداخل تأخذ الدورق والقديد ، وتكوم المنضدة أمام الفتحة .

أغاريد

- جمعتُ ثمن التذكرة

- للآن لم أفهم سبب إصرارك

- بل تعلمين

- ما نريده ليس صعباً ، خاصة وأن خطوة البداية ..

- خطوة ، خطوة ... أبحث عن قفزات تعطينى حقى

- ممن ؟ ! لم تكن زوجة أخيكَ يوما كزوجة أبى

- لا أتهم أحداً . فقط .. وددت أفتح باب غرفتى صباحاً دون أن افتعل سعالاً ، دون أن يبرى مداسى بلاط الحجرة . دون أن .. دون أن ..

- النجاح هنا ممكناً

- تفتكرى ؟ !!

يومها أشحتُ وجهى إلى ولد صغير ، طائرتهُ امتلكت عينيه ، يرسل الخيوط ، يجمعها حول أصابعه بخفة . تعلقتُ مع طائرته ورأسها المدبب يشق السماء ... تتهاوى وتتخبطنى رياح .

فى طريق العودة سبق خطواتنا قعيد . لم أستوضح من كرسيه إلاّ عجلات . عَلَتْ ضحكة مرافقى ممطوطة بالآه ، قال :

- أتذكرين الكرسى الوحيد الذى أبقت على بعض أسبابه الأنقاض ؟

- انكسر حامل الظهر وإحدى الأرجل الخلفية . ألا زلت تحتفظ به ؟

- كما هو

كانت زفرتى قيظاً أَقَرَّهُ داخلى وهو يقول : ابدئى هنا وحدك !! لو أنَّكَ أمامى الآن .. أقف .. أمد يدى .. أقطف السحاب .. لولا عبرات الذكرى . لكنى نجحت ، ونجح معى " دبلوم الندامة " كما تسميه زوجة أبى . يوم النتيجة قالت : " أخذتيه خير وبركة . اشتغلى وجهزى نفسك

أكيد فاكرة إن التعويض ضاع فى محل فاتح البيت " ... إيقاع الكلمات أكدت معناه سبابتيها فى الهواء تتمايلان كشفتيها المطبقتين . تلتفت إلى أبى قائلة :

- لازم تحفر الأرض بعكازك ؟ !!

رغم حرارة الجو تكثفت أنفاسى على زجاج النافذة حيث ابتعدت .

أبى .. أستشعر أصابعه فوق كتفى تجمعنى . يهمس :

- قضى ربنا إن المرحومة تزور اختها وقت الغارة . ربنا يرحم الجميع .

- بأيديك أخذت تارهم .

ينظر إلى عكازه قائلا : " يا مغالطة " يأمرنى أن أضحك وأحكى حكاية أغاريد .

اتسعت لى احدى بوتيكات الميدان . ثرثرت زوجة أبى وادخر أبى مالى . خارت قبضته على عكازه وهو يكرر لها :

- " إياك والكلام فى الورث معانا أو مع أولاد خالتها . البيت شاهد على السنين من قبل ميلادهم . بيعه محال " .

كم أثار داخلى . لكنى بين جدرانه الآن . أشد قامتى ، أدور ، يلتف حولى ردائى .. فى الخيال .. أستعيد ضفائرى ، تتقافز فوق كتفى تنفرط . تشير خالتى إلى ابنها يجمع شرائطى ، أسكن أحضان أمى ، يضحكان .. تصلح خالتى ضفائرى ، ويطلب ابنها حكاية ست الحسن . تصر أمى أن تحكى حكاية أغاريد : " كان ياما كان ، ولسه للآن ، صيادة مصرية اسمها أغاريد .. " . " للآن " رنين الحروف سكن أرجائى منذ أشار الصغار إلى عشة قرب البحر وقالوا " عشة أغاريد " .

عندما عدنا لاستلام البيت كانت وسط الجموع توزع الحناء . تتبعتُها مع ابن خالتى إلى عشتها .. منتصبة .. أمامها على الشاطئ الآخر الساتر الترابى .. صار أطلالا . استقبلتْنا . سألتُها : " أنت أغاريد الحواديت ؟! " قطع رفيقى دهشتها بسؤاله : " حنة النصر ؟ " قالت : " وحنة ابنى " لَهْفَى قلتُ : " " كان جنين له ثلاث شهور ، كملتيهم تسعة بشيلة وشال الحمل ما كل " بسمتها قادتنى إلى أخرى

تجـاورها ، تمـاثـلهـا ، مـلأت مـجـال عـينـي . قـالتْ وهي تحتـضن البرواز : أبوُه .

عنه كنُت أحكي .. تتسع بسـمتـها ، تلمع عيناها أكثـر ، تتـضح جانب كليهما كرمشات ثلاث .

أتيت مع الماكينة أبني خيوطي ، تؤنسني بسمتها الواسعة . شق غيمتي نفس الوجه ، عند الجيران توزع حناء العرس . أعطتني وخصتني بسلام . سألتُ الحضور . أكدوا ... ملأ صدري عبقها وهي تحتضنني ، انتظمتّ أنفاسي ..

صوت الباب يرتد ... لابد هي .

- أهلاً خالة أغاريد .. " حضرتي الحنة "

- " واشتريت شمعها "

- " وهتشتغلي معايا امتى ؟ "

- " اشتـغل معـاك !! شـبكتي عقدها محبوكـة طول عمري ألاطم بيها البحر والزمن ، لكن خيطك من شده يتكر " .

- وأنا أتضاحك معها اكتسى الفناء شمساً . مع صرير الباب جرت كرة خيط طرفها فى يدى . ارتسم ظل أذكره .. يرتد الباب .. قبل أن أنطق كانت الكرة بين يديه ، يطوى خيوطاً وخطوات ..

- لماذا عجلت العودة ؟

- قبضة يسراه على عكازه ، ويداها تبدران الشبكة باتساع البحر . كلاهما .

- استقرت عينى على وجهها .. مع كلماته بسمتها تتسع ... تتسع .

الجزء الثالث

فيضان

عقد

في الصالون اجتمع المشترى والورثة ، ومنضدة تعتليها كومة رزم نقدية تلتهمها العيون . واقفاً هو ، مرة يحدق فى ضوء ينبعث من السقف القريب . ومرة فى أخر ينفذ من الشباك . تتردد جمل ربما كان يسمعها . طاوعتُ خطواتى رغم سماعى أخرى خلفى . فى غرفة المعيشة فتحت (البلكونة) ، اخترقتُ نصفها المحول إلى علبة زجاجية ، تحيطها ستائر ثقيلة . استقرت خطواتى عند السور المحلى من أعلى بتعامدات حديدية . قفز إلى ذهنى سؤال قديم ، وجهته إلى أبى : (ليه الحديد هنا غير عند جدتى) أجابنى : (دا هنا ، لكن الثانى هناك) . وقتها ضحكت طفولتى ، لكنّى الآن أعى .

كان الارتفاع بين الأرض والنوافذ معتاداً ، لكنها تقريباً تقترب من السقف البعيد . نقوش حديدية تنفذ منها الشمس ، ترسم على الأرضيات إبداعات أحببتها . كم حاولتُ أن أختبئ فى ظلالها العريضة ، أتحايل ليُرْسَمُ بعض منها على وجهٍ بدلَّته آيات الرحيل . الشمس لا توافق أن تلعب معى إلاً هناك . وقت الظهيرة يقررون طرد صاحبتى . يساعدهم حائل خشبى كثيراً ما حلمتُ بسرقته . أذهب لأفتح الباب الخارجى ربما جاء السارق . تتوه عينى فى خشبه ، غائر وبارز ، أدفعه وأدنيه . تهتز دلايته البعيدة ، عذب رنينها ، مخروطية الشكل ، يخفى نقشها الدقيق قطعة معدنية ، أمامها فى الباب قطعة أخرى ، يسع بعض البروز طرف قدمى ، تصل إليها أصابعى ، يصير رنينها معزوفات تدفع ملل الجرس هنا .

يقولون مزعجة ، يهددون بالضرب أحياناً ، ألجأ إلى السلم ، سوره الحديدى تعتمد تكويناته المختلفة على علامة استفهام . كثيراً ما سألت عن سبب صنعه من الحديد . لم أقتنع بأية إجابة .

رحلة مزدوجة أكررها صعوداً وهبوطاً . حين يملون تحذيرى يتسع مجال رحلتى إلى الطابق الأخير ، أمد يدى ، أستطيل بأطراف أصابعى لأفتح الباب . نفس الغرف المعتادة تسكنها طيور وحيوانات ، تجتمع نهاراً فى الصالة غير المسقوفة . تهتاج لرؤيتى ثم تأكل من يدى .

لم أستطع فتح قاعة الفرن . كانوا يحرمون عينى متعتها حين يجتمعون فيها . تركت لى تسللاتى القصيرة شبابيك عالية ، عارية إلاً من شبكة سلكية .

تتوسط الطابق الثانى غرفة سداسية الشكل . كقرص النحل جدارها المطل على الشارع . طلاؤها الأسفل نقوش متداخلة من درجات الأخضر ، ورسوم مختلفة من التراث . نوافذها الواسعة لوحات من الخشب والزجاج الملون . يُقَطِّبُ جبينى حين أجد بعض قطع تشبه زجاجنا تزيد مرة بعد أخرى .

أضحك الآن حين أتذكر ثورة جدى على جاره : (حفرة الأساس غويطة ممكن تؤثر على بيتى) . أسقط قلبى انهيار دوى فى كيانى . هل تحققت مخاوف جدى ؟! ...

إنها شاحنة زلط تفرغ أحمالها على الأسفلت . تركتُها لأستطلع الأمر ... تسمرتْ قدماى .. رأيتُه جالساً على المقعد المواجه (للبلكونة) فارداً يديه وقدميه ، يسند رأسه قرب كتفه ، ينال قميصه من شلال انحدر عبر وجه توهجت حمرته . فتح الباب من أبلغه أن العقود أُعِدّتْ ، والكل فى انتظاره ليوُقِعُوا معاً . استقام واقفاً . أخرج من صمته دوياً أسعدنى .

شرنقة

لم تكن أية واحدة من عرائس الفتارين صاحبتي . تصحبني أمي في رحلات الشراء وهي تأمن ما تخشاه الأخريات . بقصاصات قديمة ، وبقايا خيوط صوفية ، وقماش من فستاني الصغير أهدتني أمي عروساً . قالت العبي معها .. عاتبتُ عروستي على فستاني .. لن أشير إليه ثانية ، ولن أسمع (كبرتي عليه) . لعبتُ ولعبتْ ..

صار لي خيوط وقماش منهما أشكل أجناساً وأنماطاً .. أحشوها قطناً تبلغني أسرار الأرض ، أبدله إسفنجاً أغوص في سحر البحار . أحرص على قصاصات حريرية أشكل منها قلوباً أُقِرُّها في كل العرائس .

حين سألتُ عرائسي عن هيئاتهم وجدتهم يصمتون . شكوتهم إلى

* القصة مهداة إلى الصديقة
القاصة عزة أحمد

حبيسة فستانى الصغير .. أضافت صمتاً .. ربما أغضبتْها المدببة صاحبة الخيط الرفيع فطالما رَتَّقَتَ فيها ثقوباً . داعبتُ عروستى صَفَّقْتُ يديها فأسمعتنى صمتاً .. اكتشفتُ أنى صفقتُها بيمناى وأن كل عرائسى مثلها تحدد فمها خيوط .

خرجتُ إلى شوارع تتفرع .. تمتد .. وتنحنى .. ربما مَلَّتْ الخطوات الملولة ، والخطوات اللاهثة .. ربما تبحث عن خطوات دافئة ، وقد تشفق على أخرى متلعثمة .. أذكر دفء الزحام بصحبة أمى . أعطيها يدى ، وأعطى عينى ما حولى .. أرقب أرجلاً وسيارات وحقائب تعتلى أكتافاً بعيدة .. تبقى الآن فتارين تعلمتُ ألاَّ ألصقها أصابعى .

فوق إحدى الأرصفة اقتربتُ من كشك صغير ، اجتمعتْ حوله أطفال ، بين أيديهم صناديق كرتونية صغيرة ، أعلاها عدة ثقوب . يحادث الأطفال رجل أشيب يعطى بعضهم صناديق ويعطى الجميع أوراق توت . جَانَبَ ولد جمعهم . رفع قدمه اليسرى إلى سور أبقت الأرض على بعض منه واخترقتْ أوراق شجر حليات حديدية تعتليه . أسند الصندوق إلى

قدمه ، انحنى عليه .. وارب الغطاء محاولاً إدخال أوراق التوت كلما زج بالأوراق انبعثت خشخشة . مد طرفا إصبعيه .. أخرج أوراق توت قديمة تعتليها كتلة ملساء كحبة السودانى المقشورة .. لابد أن الدودة الشرهة اختبأت داخلها . أعاد الولد شرنقته وهو ينظر داخل الصندوق .. غافلته فراشة .. حَوَّمتْ فوق رأسه . دفعت قدمه الأرض .. انطلقت فراشته وهو يردد " طارت " صدى الحروف يتبعثر داخلى وعيناه تتبعها ملوحاً بأوراق التوت وداعاً ..

منالى

كنتُ أعلم أن الطائرة أقلتهم منذ ساعة . لكن أصابعى أسلمتْ السماعة إلى أذنى وأدارت الرقم .. رحتُ انتظر ..

وسط جمع اعتدته ألقيتُ بنفسى فوق أحد المقاعد . (جنة للناظرين)

أقحمتُ تلكِ الجملة على ذهنى ، وأنا ألقى نظرة لمرة .. ربما خرجت عن حدود العدد . لم تغادر الأشياء أماكنها .. المناضد ، الأشجار ، المقاعد ، حركة مقدم المشروبات ذى الوجه الأسمر ، وعينه الصغيرة ترصد من هناك خلف نظارة تغبشها الأبخرة .

أنْسَيْتُنى نظارتى الشمسية ، تسكن سماءها عوالم تأخذنى وحدى

* القصة مهداة إلى الصديقة القاصة منال السيد

أُنْسَيْتُنِيها .. مَنْ حولى يناقشون إحدى القصائد أو صاحبها :

- ذاتىٌ أنت تطرح إحساساً خاصاً .

- عالمك منغلق عليك وحدك .

- مستهلك . طرح المشاعر شئ مستهلك ..

يُسِكتُهم صاحب العين الصغيرة يجمع أكوابه من أمامهم ، يحدث إصطكاكها بريقاً :... إنها الشمس تداعب الأكواب من خلف شجرة كبيرة يقف جذعها أسفلها يرسل أيديه إلى أعلى ويردد :

- أنا أحمل جمالاً ..

على الفروع إتفقت شمس ما قبل الغروب ونسمته ، تحالفت معها عصافير ، تتقافز وتحوم .. تهتز الأوراق الكثيفة ، تلقى الشمس من بينها أقماراً تتناثر فوق المناضد والجلوس .. كان المتحدث ينادى بإلغاء لفظ القهر ويتساءل لماذا ؟ !! فالزحام نوع من أنواع القهر ومثله إلحاح باعة الأتوبيسات ، إصرار المدير على انضباط ساعته العجولة صباحاً ، طلاب المدارس على ظهورهم الحقائب والأمل ، أعمدة الإنارة مظلمة هنا

ومنسـيـة نهـاراً هناك ، .. الأصابع تسكن الآذان .. انتبه الجميع لصراخ

عصفور أشعرتنى حركة جناحية بالبرودة وهو يستند إلى فرع بقدم يحاول

وضع الأخرى جانبها .. أصاب نجاحه نظام الجلوس .

حين همـمتُ بالانصراف وقعتْ عينى على صديقة بادلتنى التحية

قاومتُ رغبة فى الكلام ناوشتنى . أشارتْ صديقتى بالانتظار . أهدتنى

مع بشاشتها بعضاً من الحلوى . باسمة كنت اتحرى يمناها . لم ألمح بريق

الذهب عن الحلوى سألتها ..

قالت : لأنى أحبك .



سقطة

أكوام المناديل المبللة متناثرة . حُمْرَةُ أنفها وعينيها دفعتنى أسألها : هل أُجبرت عليه ؟ . على عقد الفل الجاف فتحتْ صفحات كتابِ ، قالت : كان أهداه إليَّ . عدتُ أسألها : هو فرط الفرحة إذن ؟ . كادت زفراتها تحرق وسادة ، فيها دفنتْ وجهها . هدهدتُها فراحت تحكى :

كنتُ وحدى ، وكان لضيق الغرفة بعض الفضل . فوق (الدولاب) استقر مكتباً ، حوصرت بين أرجله حين قذفه الزلزال يتبعه بعض من السقف . انعقدت يداى فوق رأسى وتأرجح وجهى بين ركبتى . سَلَبتْ وعيى أصوات دوتْ حولى أو داخلى لا أدرى ..

بُتَرِتْ عقلة سبابتى ، وتم ترميم منزلنا . حولى اجتمعت الأسرة

تحمد ، وأخي يخرج طرف لسانه ، يحركه ضاحكاً ويقول : أكتبِ خطاباً لأبى بآخر الأخبار ثم خيطى قطع القميص . اختل توازن أمى وهو يتلاشى لطمتها بينما أضحك وأحاول . صار الأمر مجرد ثنى الإبهام . القلم يخط ، يدون . أضحك . الخيط يعرف أين طريقه .. أضحك . سرت بأيامى واليوم خطبت . ترجمتنى أمى بترددات لسانها . كنتُ أحتضن غدى ، أدور به . أغلقتُ باب الغرفة ، إليه استند ظهرى ورأسى .. سَبَتّ النشوة جفنيّ . رأيتُنى بين السحاب أُتوَّج ، أبيض ثوبى يباهى القمر . تتسابق النجوم فوق ثوبى وزهورى وقفازيّ .. قفازيّ .. زلزلتنى " لو " همهمتْ ذاتى : أهذه أنا ؟!!!

مواجهة

قررتُ أن أعيدها إلى أهلها . رغم انتصاف الليل أبلغتها . قامت لتعد ملابسها . كعادتها عينان شاردتان حيث عالم أُغلقَتْ أبوابه داخلها وشفتان فَتَحَتْهُمَا ترنيمات هامسة اختنقتْ .. ربما لوجودى . أذكر مرة لمحتُ دموعاً .. شاحتْ يدى بوجه نضرتُه لجَّمتْ غضبى . كم نظرتُ إليها ، مستغرقة هى ، لكنى كنتُ أراقب .. ربما استقرت تلك البسمة المترددة .

كانت دائما تقول : (حاضر) فتطحن ضروسى الهواء . وإذا فارت ثورتى تُغِيصُ رأسها بين كتفيها ، وتعقد يديها أمام وجهها صامتة . وأنا ، تثقب الحائط قبضتى ، وتفكر رأسى فى المنافسة . أين منها تلك السيارات المسرعة ؟ وأنابيب الغاز الخربة ؟ ومفاجآت القدر ؟ ...

كان لخطانا رتابة تكتكات الثوانى فى الظلمة الصامتة . سرقتنى الذكرى إلى شفتيها تقاومان ابتسامة الغلبة لها . بينما تطغى ظلال أهدابها على حُمْرة تثقل رأسها فينكسُ . جعلتْنِى الذكرى اكتشف شيئاً . التفتتُ أسألها : لماذا أنت دائماً .. شهقتْ . أخرستْ البالوعة سؤالى . كانت تتكئ بمرفقيها على الحافة واستغاثتى المتحشرجة تتكرر . وأنا شبه منبطح تطوق ذراعى من سُلِبَتْ دبيبها . أجذبها . تحطم أنَّاتها أشياء داخلى فأزداد قوة .

حين أقعدتها لم تترك لى أنفاسى فرصة كلام . طاوعتُ يدى .

طردتُ عن وجهها الدموع . رفعتْ أهدابها وهى تحايل وهنها . كانتْ باسمة .

جـمـود

طويتُها عائداً إلى المنزل . حاولتُ أن أبدو . كما ينبغي . حزيناً .

أسعيد أنا ؟ ! اجتهدتُ طول طريقى لأحدد مشاعرى !!! طرقتُ الباب وعلى مسامعى ثورة أبى . واجهنى قائلاً : " اتخرجتْ فى التجارة عشان تمسك حساب كوافير ، هانت عليك نفسك " أخذتْه أمى جانباً ستحتوى الموقف كعادتها . أبى أغضبه المكان وعمل استنتجه !! دائماً قادر على الغضب !! تركتهما إلى غرفة أغلقتُ بابها مسترجعاً يومى .. اجتهدت طول طريقى - هباء - لأحدد مشاعرى .. تذكرتُ أنى صباحاً أفقتُ من حلم كنتُ فيه طفلاً ألعب بمنزل جدى . أضع أوراق الخس للسلحفاة . أتركها تأكل ، وأنا أحسب تقاسيم الحجارة فوق

* القصة مهداة إلى الأستاذ
محمد جلال

ظهرها . فى أول مرة عرفتُها اشفقتُ عليها مما تحمله ، استحسنتُه حين شاكسها الأطفال فاحتمتّ بداخله . علمنى جدى أن تلك التقاسيم عمرها . كنتُ أسعد حين تزيد ، وأغضب حين تغيب السلحفاة : لكنها دائماً كانت تعود . فى الحلم كنتُ أبحث عنها لاهثاً .. وجدتُها جانب إحدى الحوائط تقاسيم ظهرها لأسفل أعدتها إلى طبيعتها ، انتظرت خروجها . لم تخرج . أبكى ويضحك المشاكسون دائرون حولى . ارتديت ملابسى مبلغاً أمى وجهتى . أبلغتِها وأغلقتُ باب المنزل . سرتُ بين السيارات والباعة ، والناس بين وقوف ومارة ، و .. سألت نفسى لِمَ لا أفكر فى شئ ؟ !! حين وصلتُ أخذنى المسؤول إلى المخزن أحاطنى بنظرات فهمتُ معناها أطلعنى على زجاجات وصناديق وأشياء كثيرة . كنتُ أعلم أنى عامل نظافة ، لكنه أكد أن ألبِّى أغراض الزبائن . اصطحبت مكنسة وجاروفاً لأبدأ ، وهو يقول ضاحكاً :

- " لايقين على لبس العيد "

بين وقت وآخر أجلب من المخزن ما يطلبه ، يباغتنى قائلاً :

- " انت بتاع شغل ؟! "

طلب كوب ماء ، أتيته به . ابتلعه قائلاً إن الكوب بللت يده . أعطانى درساً استمعت إليه . أتيته بمنشفة استخدمها وألقاها فى وجهى . حين طلب أحد الزبائن مجلّة جلبتها كالمعتاد أخذها إكراماً لزبونه . بمجرد أن رآها صرخ فى وجهى :

- من المخزن ؟ !!

أشرتُ بالإيجاب . قال :

- " قديمة يا متخلف قديمة ، أنت مش بتاع شغل "

دون جدوى حاول الحضور إنهاء الموقف . ألقى بالمجلة فى وجهى قائلاً :

- " خذها وغور "

أطلقت طويتها مطالعاً الغلاف . مكتوب عليه ما تركه جندى أمريكى مات فى فيتنام : " نحن غير الراغبين يقودنا غير المؤهلين لنؤدى أعمالاً غير ضرورية من أجل من لا يعترف بالجميل "

انفجرتُ بضحك غريب مال معه رأسى للخلف مصتدماً بالباب ، تقدمتُ بضع خطوات وانثنيتُ على حافة السرير مستغرقاً .. لم التفت إلى أمى حين فتحت الباب . ربتتْ كتفى قائلة :

- " بلاش بكاء الليلة مولد ، قوم فك عن نفسك "

نفس السؤال أزحته بعيداً لكنه ألح : أين مشاعرى ؟ !!

راقت لى فكرة أمى . غريب . لم أتذكر إلاَّ الآن أنى زرتُ المولد فى حلمى ، لكنِّى لم أكن مع جدى . وحدى قصدتُ أبا الغيط لأرى دوائره ، تدور مسرعة إلى أعلى وأسفل وإلى الجانبين . تدور تتداخل ألوانها الزاهية . أجرى لأقف تحتها . كما أبى الغيط أدور وأديرها وأدور . كنتُ فى يد جدى أشاهد وأتخيل ، لكنِّى فى الحلم فعلت ووقعت .. لم أدرِ إلاَّ لاهثا خلف السلحفاة . أسير الآن وأنا أعلم أن ما تغير ليس فقط الزمان والمكان ، لكنِّى أبحث عن أبى الغيط ، رغم علمى بأن الدنيا لابد ضاقت بدوائره ، أؤمن أنه لابد دائر يدير - فى الخيال - دوائره الملونة . خطر لى سؤال مختلف : هل اليقين شعور ؟ !! أخذ

كتفى وهو يمر عكس اتجاهى مردداً " حى " لم يهتم لألمى ، لكنِّى انتبهتُ إليـه . يلبس جلباباً أخذ رقـاعـة من ألوان دوائر أبى الغـيط ، ومـثلهـا غطاء رأسـه المدبب ، وشـرائطه المدلاة منه ، أو المعـقـودة أعلى عـصى صغيرة فى يده .. بهلول هو كنت أخشى صياح أمثاله صغيراً ، لكن هيئتـه ذكرتنى بأبى الغـيط . تتـبعـتـه ، لـم يتـرك طفلاً إلا عـبث معـه بشرائط عصاه ، ويهمس فى أذنه بجمل منغمة لم أتبينها ، ربما أعطاه حلوى ، يضحك كل الأطـفـال دون أن يضحك . اقـتربتُ خلفه . وددت لو لامستُ رقاع جلبابه ، لو تعلقتُ بشرائط عصاه .

التفتَ فجأة وحدق فى عينى .. سرت كـأنى لم أقصده . حاولت أندمج فى الزحام . أجد فيه ما يشغلنى عن البهلول . تأرجحت شرائطه أمام عيني . تغاضيت فلامست أنفى . همس البهلول خلف أذنى :

حتى الخرفان منها اللى ينطح

لازم تلبس توب الديب ، وتقدر تنبح

من عزم شراسة كلب . وتنجح

إنك تفضل جواك

إياك تتزحزح .

عبث فى وجهى بشرائطة دائراً حولى . تركنى . ألوانه أمام عينى تتداخل .....

انفكت يداى

بينما نُخَمِّنُ رحلتنا جاء من أبلغنا . لم أنتبه إلاَّ بسكنى . أغلق حقيبتى . أتأكد من أوراقى خاصة " الكارنيه " . " المنظمة الدولية للصليب الأحمر " أمنية يوم تحققت خلتُ الميزان فى يدى . معصوبة عينى برقائق تكسو العالم كله أبيض . ويدى الأخرى ضمادة ، يعى من تحرسه إنسانيته . يعيها حتى يصير كيانه قلباً تزنه " ماعت " . عادت المطارق . أحاول تمييزها . يتهشم داخلى . تعلو أصداء : هل أستطيع ؟ !

فى المطار جمعتنا حافلة . كنا نتهامس حين وقف فى مقدمتها . قال - كما قال ذيه العسكرى - : إننا فى اسرائيل . تدارك مجاورى هامساً : الأرض المحتلة . انضم الجالس خلفى متذكراً : عربية أنت .

تشاغلت بمذياعي الصغير . يرسل أصواتاً مائجة مشوشة . أغلقتُه .

الجبال تنظرنا . تتفاوت . إحداها امتد سفحه ، تدرج مرتفعا ثم احتدت قمته مائلة . رأيته صقراً أسقط رأسه متربصاً بفريسته . آخر لما اقتربنا ، وجدتُه تلالاً - فوق مرتفع - تشابكت . خلتها جيشاً ينتظر صيحة قائده . غاصت العجلات وعلتْ صرخة ذى النجمة طالباً - عبر اللاسلكى - حافلة أخرى .

نزلنا أمام مسدة سوداء سوداء . اعتلاها بعيداً سواد مفرغ .. ثعابين متحفزة تجر ذيولها المغروسة فى السحاب . تستسلم حبات الرمل للهواء . يطيعها . يرفعها لتصفع البوابة . رأيتُ غيظ الثعابين البعيدة ، ولمحتُ انفراجة أمامها يد ذى النجمة تدعونا للدخول .

عبر الأبواب والأوراق كنت أكرر لنفسى " دروس الحياد " أرى رفائقى مفرية بين الأسلاك الشائكة . ألح " فقط الإنسان " فإذا بدماء تبتلع الميزان وتتجلط . أفاقنى من عثر بقدمى . اعتذر ومضى . علمتُ أنى أربتُ أكتافاً تؤلمها - غالباً - أصابعى الحانية .

فوق كتفى ألقيتُ حقيبتى والمذياع . يداى خلف ظهرى تشد كلاهما الأخرى . أخطو فناء المعتقلين . عيناى فى كل الوجوه ، كل العيون ، كلها تشاغلتْ مترقبة . قرأتُ شفرات لمعانها . كنتُ أبتلع لسانى ، أستجدى فىَّ صاحبة " الكارنيه " انفكتْ يداى فشغلتُها بالمذياع . لو تركته ينطق العربية .. لكن الآخرين .. جذبتنى زميلتى . قالت : إحدى المعتقلات مضربة عن الطعام ، ليس سواك أقدر على إقناعها .

تقريباً تستوى بالسرير . يستقر بيمناها - أعلى الصليب - خرطوم المحلول . تتوسد شعرها الفاحم . مرسل على جبينها وجانبى وجهها . أزحته خلف أذنيها . نبهتُها . حَرَّكَتْ رأسها وفَرَّجَتْ السدل . لها أبتسمتْ زميلتى وخرجتْ . فتحتُ حقيبتى لأُخرج " الكارنيه " . عثرتُ على باقى " بسكوت " . قدمتُه لها . قلتُ : يحشوه طعام العذراء . كسرتُ واحدة لترى البلح . لم أجهل نظرتها لذا أعطيتها " الكارنيه " . حدقتْ . أردفتُه ببطاقتى الشخصية . همست : صادرة فى القاهرة . أو ماتُ . سألتها عن إضرابها . انفجر بكاؤها : جبناء .. أخذوا قذيفتى ..

جبناء . من بين شهقات البكاء تكرر : « لابد هى ، صوّبها عمر ، لن تصل سواها .. صدقينى » . رغم ضيق الزنزانة تنظر إلى عمق اشتقتُ لأسراره . مع صوت المتاريس اقتربتُ من الباب . أشارت لى زميلتى . ملأت قبضتى بحجر . قالت : راوغيها وحذارى من تركه معها . قدمتُ لها الحجر . احتضَنَتْهُ . غادرها الشحوب وهى تدور به . تؤكد لعمر أنه يوماً ما سيصل . عن عمر سألتها . راحت تحدق .

صغار قبالة المنزل نلعب حول الشجرة . حفرت أيدينا أماكنها بجذعها . حوله ندور . نردد ما علمه لنا أبوانا . صغيران كنا لكنَّا نردد ما نعيه جيداً :

★ سقف بيتى حديد	ركن بيتى حجر
فاعصفى يا رياح	وانتحب يا مطر
واسبحى يا غيوم	واهطلى بالمطر
واعصفى يا رعود	لست أخشى الخطر
سقف بيتى حديد	ركن بيتى حجر

* قصيدة لإيليا أبى ماضى

نكرر حتى تنادى أمى " : غابت الشمس ، يكفى لعب " . تجمعنا باحة المنزل . نمرح مع الفطائر والمكسرات . بين الأكواب والأدخنة يتهامس الوالدان . تتشبث أم عمر بأمى : " بالله تراضينى " . تأكل أمى مستحسنة . تملأ كفها لجارتها : " والعدرا ما يرجع " . ينضموا فى حديث يأخذ عمر وأنا معه .. يوماً أبلغنى عمر أن همس والدينا أثمر . حكى لى خوف عمى عليهما ، وقَولٌ جدته لهم : " قدرنا نلد الشهداء " . فى الصباح هدموا منزلنا وبداخله الجدة . ماتت أمى وهى تهرول خلفهما . قال من لكزها بسلاحه كلاماً وعاه أحد الجيران . اِنْتَظَرَنا - وكنا بصحبة أم عمر - أخفانا بجبل الزيتون أياماً . تسلل عمر فى إحداها . عاد بحجر يملأ جيبه . قال سيثأر منزلنا لنفسه . لم أقل لك بعد .. مدينتى القدس ..

بالقاهرة أقمت مع عمتى . أعود يملأ عينى عمر وعمى بين الأكواب والأدخنة . يهمس معهما آخرون . أَتَسَمَّعْ خلف الباب . أنتظر رأيه بينهم . جاورتْ أذنه أذنى . عثرتْ قدمى وأنا ألتفتُ لأختفى .

وقانى الأرض بساعديه . خفاش أصم قمقمه صدرى حين لَفَحَتْ أنفاسه وجهى . جفف جبينه بظهر يده مخرجاً بالأخرى حلوى . شطرها مقلداً أمه همساً : " قاسم أختك ياعمر " . بعدها لم أفقد حيرة عينيه .

فى المرة الأخيرة أوصلنى وحده . توقف فى الطريق . نزلتُ بعده . أشتاقُ صيحتى أمامها . الآن تمسك أيدينا أطراف فروعها المتدلية . انحنينا نبحث آثارنا . وجدنا جذوراً فوق الأرض نافرة ؛ أمامها هدم منزلنا .. أخرجها من جيبه الداخلى . قال : قذيفتى . ستصل يوماً ما إلى هنااااك .. وراح يصوب .. فى السيارة تركتُ فيروز تصلى وأنا معها .

حين عدت أعطتنى أم عمر قذيفته . قالت : يوصيك عمك أن تلدى الشهداء .

أطعمتُها . وسدتُها كتفى . لما نامتْ انتزعتُنى من جانبها انتزاعاً . شعرتُ وطأته فى الطريق .. لستُ إلا صاحبة " الكارنيه " . فى الطائرة تناومتُ . كانتْ كتفاى ثقيلة . رقائقى تغلل يداى خلف ظهرى . الميزان أمامى مصنوع بعظام القتلى . ترتفع كفة منه ملؤها أحجاراً . تنخفض الأخرى تعلوها " ماعت " ..

لن أستطيع

تتمايل زهور حديقته مع نسمات الصباح . يقطع نزهة فراشة تحاوره . رأسه فى ذيله . يتقافز أحياناً . يقف على الخلفيتين ، مرسلاً صوته تتردده الأرجاء . رأى صاحبه . يزداد بريق عينيه . يتجه إليه تهتز أعضاؤه ، كل منها على حدة ، يضمها هذا الإطار اللامع . يتبارى وقدمَىْ صاحبه ، يُلامس أحدهما بين الحين والحين رافعاً بصره . يستطيل مستنداً إليه مرسلاً أنفاسه اللاهثة ، يحتضنه صاحبه ويربت رأسه فيلعقه .

يتصاحبان إلى البوابة الحديدية ، ذات النقوش القمرية المفرغة ، فى قفزات لولبية متلعثمة ، تتخللها حوارات بلغة تجمعهما . حين تُغْلَقُ

البوابة ، يسلم أصابعه لمفرغاتها ، تتناقل بينها . بينما تتعالى طبقات صوته . تثقب عيناه الطريق الممتد . تعود أقدامه إلى الأرض . يرسم دبيبها جيئة وذهاباً طريقاً ممتداً بعرض البوابة . تكاد نباحاته أن تنطق : (إياكم والاقتراب) .

يوماً ، لم يتل اللقاء فيه وداع ، ترافقا .. امتد بهما الطريق . التقى صديقه بشخص ما . تصافحا ، جلسا . أما هو ، تجول نظراته فى المكان . تعود لتستقر على صاحبه ، وإذا بصاحبه ينصرف . كادت حلقات سلسلته أن تنفرط . ضاعت نباحاته المتهدجة هباءً . جر أقدامه مطأطئ الرأس حتى جاور عقدة سلسلته . لم تمله قط تلك اليد الناعمة التى داومت على خصلتها . شيئاً فشيئاً لبّى النداء .

يصحبه لجديد آخر .. يصافح يجلس . فى تلك المرة ، اقتسم نظراته بين صديقه والباب . تعلق بصره بمقعده الخالى . جلس أمامه منكمشاً يصدر صوتاً متقطعاً واهناً . عيناه محلقتان . بينما تصرعه لمسة حانية ، تنفرط الحلقات من عنقه ... يتلون صوته . صار حاداً مارقاً .

تراجع ، ثم تقوقع تحت شجيرة مستغرقاً فى النحيب

النظـــارة

وجدتنى فى حفل بـهى كنتُ تاجه . لكنَّ الوجوه البشوشة والكلمات الودودة تقـذف داخلى غـصـة تلو غـصـة ، رحتُ أتسلل حـتى نجـوت . أخذتْنى الظلمة فـاستسلمتُ لها . توقـفتُ تماماً فى عـمقـها بأنفـاس لاهثة تبث فـى الهـواء بهـجـة انتـصـار . استـشعـرتُ حـولى جـمـال طلسـمى . اشتـبكتْ أصابعى خلف ظهرى ، وتَنَقَّلَتْ قـدماى وفق مـيـلات النشـوة . فـجـأة قُيِّـدتُ . فـقط .. العنان لصـوتى . كـدتُ أصم من تردداته وأنا أصـرخ : دعـونى .. فُـرضَ علىَّ الصـمت من داخلى فـإذا بى أتحـرر .. تركتُ قـدمىَّ تتـخـبط . تتـلاشى عـثرة وتقـودنى إلى أخـرى ، ويقـودنى عقلى إلى الوقوف .

حين رأيتُ النور كنتُ أدور حول نفسى فيُظْلِمُ بعضى ويُضئ بعضى تباعاً . لكن أذرعاً صلبة امتدت من الاتجاهين تتشابك حولى .. أهرب مكانى ، تضيق أنكمش ، تعتصرنى . أغوص داخلى .. أتلاشى . انتفضتُ من نومى . أطلقتُ أضواء الغرفة . تشملنى رعدات الشتاء القارس ، بينما يقودنى إلى الدورق عطش أجهله . أنهم حتى يكل النفس . أسترخى وأجبر جفنى على عدم المشاركة .

تتهادى أمامى صورته . كعادته . يُسْرِى فى مخالطه طلاوة خضرة بأرضها ترعى . يخترق النفوس ، يسكنها من قبل طى السنين . لم يمل قط طريقه إلىَّ كلما أغلقتُ باباً أشرق بآخر . لكن مجهولاً يباغت كلينا .. قُطِعَ النور . شَقَّتْ يدى طريقاً تعلمه إلى النظارة .

أسْكَنَتْهـا أمـام عينـى . الظلمـة كمـا هـى .. لكـن أصـابعى ذاب جليدها .

الجزء الأول: دومات على سطح النهر	الصفحة

الجزء الثاني: تجديف

الجزء الثالث : فيضان **الصفحة**

الكاتبة

- راندا كمال طه

- ليسانس الآداب قسم اللغة العربية - جامعة عين شمس ودبلوم الدراسات المسرحية .

- نشرت لها قصص ومقالات نقدية فى عدة دوريات أدبية .

- نشرت لها مجموعة مشتركة بعنوان أجنحة البوح صدرت عن جامعة الجيل الجديد .

صدر من الكتاب الأول

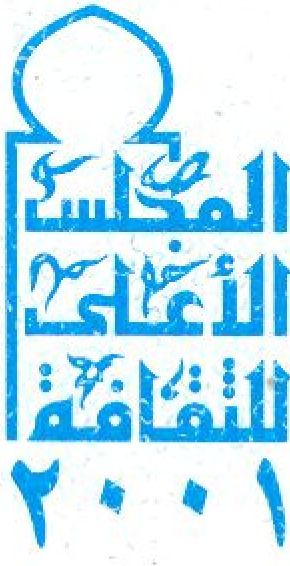
١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلاموني
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - لكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لا تليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	نقد	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليلى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى

٢٥ - أفراخ الحمام	قصص	شوقي عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أماني خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف
٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار الجنوبى
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العربى
٣٩ - عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠ - أولى أولّ	حكايات	محمد ناصر على
٤١ - وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢ - البت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣ - قبل اكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤ - تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس في المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ما تحاولش	مسرحية	مصطفى س

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٣٢٨ / ٢٠٠١




المجلس
الأعلى
للثقافة
٢٠٠١